الغصن المذبوح

بقلم

الباتول طلحة

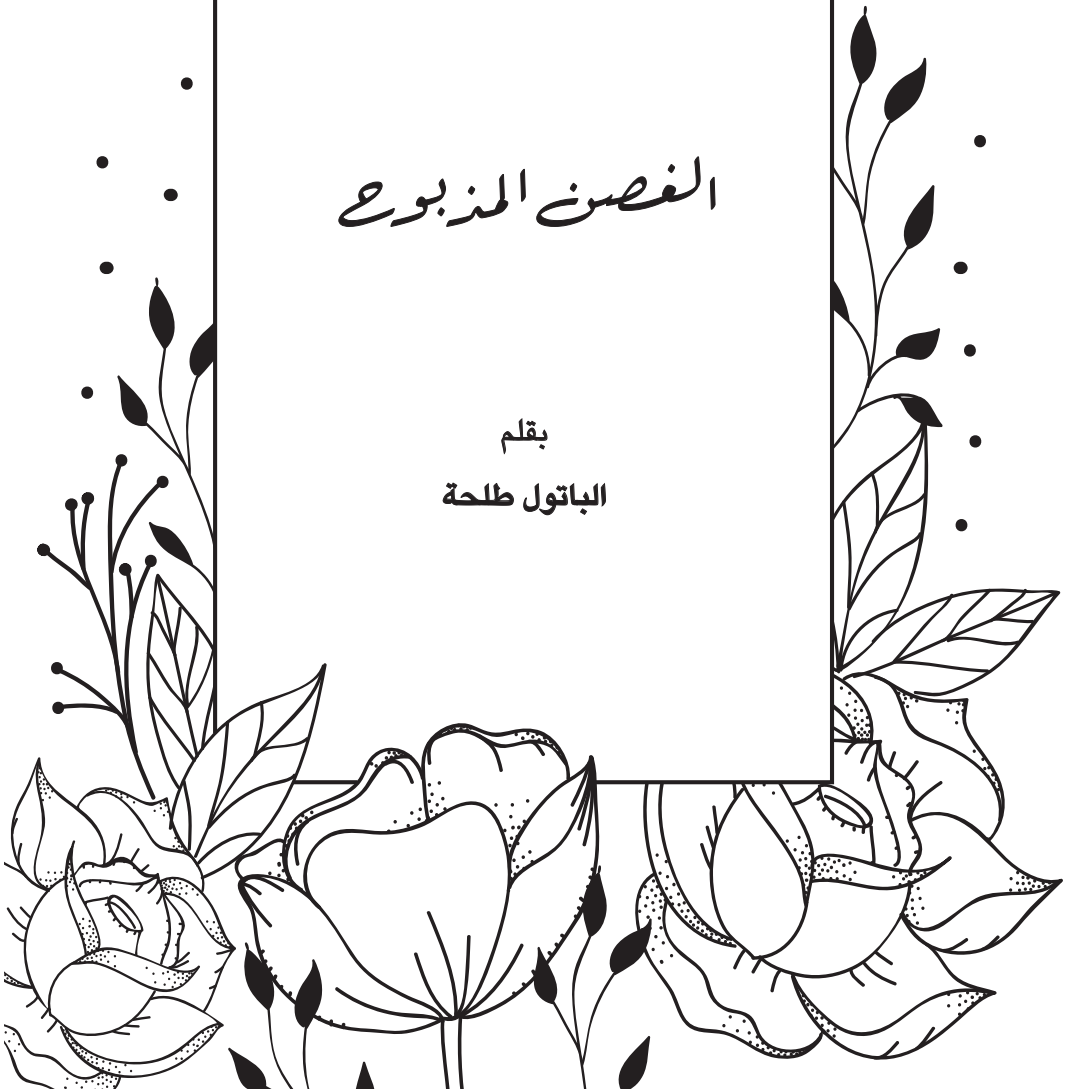

تقديم: أحداث القصة لمجاهدين وشهداء جزائريين حقيقيين - ١٩٥٠/ ١٩٦٢-(المسيح، رياض، لحسن البكاي، محمد، حمزة، المنفق، والد وأخ المنفق، الحاجة يمينة)، تم مزج جهادهم مع أبطال خياليين ليصنعوا ملحمة بفلسطين

أريام: «البشرى، البشرى... لقد عاد الأبطال منتصرين..».

(يهرع السكان فرحين، فتزغرد النسوة ويكبر الرجال، ثم يصل المجاهدون).

المسيح: «أُكرمنا بالجهاد وفُضلنا بهذا الدين على كل دين، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، الحمد لله».

الحاجة يمينة: «بوركتم يا مجاهدين، بكم تحرر القدس وبدمائكم تعطر..».

المنفق: «رحمة الله على من استشهد، والجهاد لمن بقي حيًا..».

(يزداد السكان فرحًا، وبعد الصلاة والوليمة الشرفية يجلسون في حلقة كلهم).

أريام: «أحسنتم بتصديكم لهم وتلقينهم درسًا في القتال حتى لا يتجرؤوا على وطأة جبلنا وأشجارنا المباركة».

القائد لحسن: «وفقنا في تدمير الكتائب الأربعة، ونجى منهم القائد و٣ آخرون».

المنفق: «نحن نسير للوطن والباقي على الله..».

(فجأة جاء الفدائيان يلهثان مسرعين، فيفزعون).

الحاجة: «ما خطبكما محمد وحمزة؟».

حمزة: «عذرًا لكن.. سوف تحدث كارثة هنا سمعنا أنباء تعسة مشؤومة».

محمد: «القرية ستباد مع أشجار الزيتون، هذا هو البيان الجديد، خبر آخر، يتعلق بعائلة المنفق، قُتل الأخ وأُخذ الأب إلى المجهول..».

(يُصدم الأهالي والمنفق بالخبرين فيصمتون ثم..).

المنفق: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، رحمة الله عليكما يا شهيدين».

امرأة: «كيف فعلوا هذا بعجوز بريء ويافع لا ذنب له وقد حرره المنفق من الأسر قبل مدة متنكرًا كأنه امرأة بكساء؟!».

رياض: «سنحمي القرية مهما حصل».

(يغادر المجاهدون القرية، فيودعهم الأهالي...).

أريام: «أستودع الله دينكم، وأماناتكم، وخواتيم أعمالكم».

(في مقر الأعداء عُوقب المخفقون خاصة بعد مجيء القائد الجديد).

كوربيلا: «نفتالي أنت عار علينا، كيف سولت لك نفسك الجبانة هذه الفعلة البغيضة؟».

نفتالي: «أنا آسف بشدة يا سيدي، لقد كان تكتيكهم محكمًا، وانشغلنا بالبحث عن القرية أكثر من المعركة».

(وفعلًا يُعدم رغم استرجائه الطويل، هذا هو آشير كوربيلا الكولونيل الجديد، مشهور بالقسوة اللامثيل لها وبالشدة والمكر والحيلة وبغرابته العجيبة...).

(أما قريبًا منهم في المدينة عاد أخو محمد الصغير وحمزة وأريام وابن الحاجة يمينة وابن أخ الشيخ البكاي وابن خالة المنفق وابن عمة رياض والمسيح... * الأسطورة الجهادية * نضال * بحيث حُكم عليه بالإعدام وهو قاصر لنشاطه فهُرب لبلاد مجاورة، وهاهو عاد اليوم).

نضال: «أُبعدت عنك مجبرًا، وذكر شهدائك حطم وجداني، شوقي وحنيني سبقاني فحرقا قلبي قبل أن تبرده ثلوجك يا أرض النبيين، عدت لك ومن أجلك غاليتي فلسطين».

ثم قصد محل العطور، إنه لماريان السيدة المسيحية.

نضال: «المعذرة، لدي طلب يا سيدة..».

ماريان: «الأسطورة نضال، نحن في خدمتك».

نضال متعجبًا: «عفوًا! لكن كيف تعرفينني؟ ولماذا تخاطبينني هكذا؟!».

ماريان: «لا يهم هذا. وإن كنا من ديانتين مختلفتين، فكلانا عاش وترعرع بين أحضان هذه الأرض المباركة.... ونحن نكافح لها ولها نفني أنفسنا!».

نضال: «هل أنتِ مكافحةٌ أيضًا؟».

ماريان: «بطريقتي الخاصة، المهم جئتَ تريد بعض الخلطات والعطور الفعّالة؟!».

نضال: «يا سبحان الله! كأنكِ قرأتِ أفكاري».

ماريان: «اقسم على الوفاء والصمود لأجل إعادة جلال وعظمة فلسطين من جديد، وأشهدك كما أشهد الله على أنّي للعهد فداء..».

نضال مبتسمًا: «حسنًا وهو كذلك!».

(فجأة تُسمع ضوضاء في الخارج، إنهم جنود كوربيلا، فتشير عليه بالاختباء، ويفعل ذلك، فيقتحمون المكان).

جندي: «المعذرة سيدة دوكار، نحن نبحث عن هاربٍ يُدعى نضال!».

ماريان: «عودوا من حيث جئتم. محلي للمسيحيين وليس لكم أو له ولأمثاله!... اِنقلعوا فورًا».

جندي: «كفاكِ إهانات رجاءً، فقد أهنتِ أخاك الكولونيل السيد كوربيلا معنا من قبل، فقِنا شركِ!».

(يصعق نضال لهذا الكلام، تغضب جدًّا وتطردهم).

نضال مدهوشًا: «شكرًا لمساعدتكِ.أنا ممتنٌّ لكِ،؟أنتِ...!».

ماريان بحسرة: «أجل، أنا ماريان كوربيلا أخت النذل آشير كوربيلا. لا تفزع فأنا على عهدي وعداوتي له تماثل عداوتكم له أيضًا أو أشد وإن كنا أخوين، فما فعله بالمسيحيين جائر أيضًا، هو مجرم وسجله أسود».

نضال متعجبًا مبتسمًا: «بارك الله فيكِ، رغم اِختلافكِ عنا إلا أنكِ مذهلة بحق... ويا للمفارقة فعلًا!!!».

(الشيخ والمجاهدون في المغارة).

المنفق: «نحن في خطر، لذلك علينا الاستعداد، لكن ينقصنا السلاح والذخيرة فمن سيحضره؟».

رياض: «اِئذن لي يا شيخ بالقيام بهذه المهمة! أرجوك..».

الشيخ لحسن: «المهمة خطيرة جدًّا خاصة التطويق المفروض على الجبل».

رياض: «قلتُ لكَ أرجوك وأرجوك تهز الجبال. أستحلفك بالله أن أذهب..».

البكاي: «اِستحلفتني بالله فهزمتني!. اِذهب متوكلًا... موفقًا».

(ومضى رياض جسورًا يقضي مهمته الصعبة، ونجح في نقل السلاح إلى المخبأ القريب من المغارة، نقله من بيت الحاجة يمينة؛ لأنه المخزن السري، ولما عاد ليأخذ بعض الوثائق وهي تنتظره أيضًا، أُغتيلت أثناء فتح الباب وهو طورد إلى أن وصل لممر مغلق فيفجر المكان، ويستشهد، وعاد الناجون من الجنود ليخبروا آشير بمكان القرية ولما علم فرح واغتبط جدًّا).

(وصل الخبر إلى مسامع المجاهدين فكبروا، وقصد نضال البيت فصُدم بما رآه فاحتضنها...

ثم قام بدفنها، يعني أنّ الجريمة حدثت في غياب أريام وريهام الأخت الصغرى، لكن أُخبرت الكبرى لما عادت... وفجر نضال البيت قبل رحيله. والآن توجه للمدينة ليأخذ شيئًا من محل دوكار فهوجما مجددًا).

ماريان: «أُهرب يا نضال! أُهرب وخذ معك مارلين ابنتي لتطببكم وتساعدكم..».

(يحاول منعها فتدفعه مجبرة إياه على الهرب مع ابنتها من الباب الخلفي، ويقتحم الصهاينة محلها بعد أن حطموه، نجى نضال ومارلين بينما تتفحم ماريان بمحلها جراء المحرقة التي منحوها لها نعش نهايتها ويريان ذلك!).

مارلين صارخة: «أمي! (ناحبة) اللعنة عليكم... قضيتم على أمي يا سفاحين!!».

(تصرخ وتندب باكية ودموعها جمر).

نضال مواسيًا حزينًا: «اِهدئي أرجوكِ، اِفخري بها فهي كانت صلبة جريئة!!والدتك سقطت بشرف فكانت بذلك فداء للجليلة فلسطين!».

مارلين غاضبة: «أُصمت أنت! ما أدراك بفقدان الأم؟ ما أدراك؟ ألا تملك قلبًا كالبشر...!؟».

نضال: «أدري؛ لأني فقدتها ووالدي يا مارلين!».

(يوقع كلامه فيها زلزال ألم وندم).

(عاد نضال وأخبرهم عن مكان السلاح، أما أخواه فقد سعدا جدًّا لعودته سالمًا بعد كل السنين القاسية وطبعًا كان للحزن على فقدان الأهل نصيبه: الحاجة يمينة، رياض، الخال غانم وابنه علي... وغيرهم ثم تأتي مارلين).

الشيخ لحسن: «هذه إذًا من عالجت جرح المنفق وهي ابنة تلك المقدامة».

نضال: «أجل يا شيخنا مارلين دوكار الطبيبة، مارلين هؤلاء هم سادة الجهاد هنا: شيخنا لحسن، المسيح، المنفق، حمزة ومحمد».

مارلين: «أنا محظوظة فعلا لأني أقف أمام شامخين مثلكم أشكركم».

(تأتي ريهام مسرعة وتدخل عليهم).

ريهام: «السلام عليكم، هناك خبر سيئ القوات كشفت المغارة وستهاجمكم في أي لحظة».

(وتغادر سريعًا).

نضال (شاكًا بها): «هلا أخبرتماني عن ريهام؛ هل لا زالت تطيل البقاء بالمدينة؟». (فأخبروه بعملها بالمدينة).

المنفق: «شيخنا لدي اقتراح لما لا نهاجم بالقذائف عدة مقرات؛ لنرعبهم فيتنازلون عن مخططهم».

(وشرح لهم الخطة جيدًا).

الشيخ لحسن: «حسنا على بركة الله لننطلق محررين». (الله اكبر)

(سار معهم نضال وهو يشك في الأمر غير مقتنع، أما مارلين فبقيت في المغارة، لما وصلوا باشروا التنفيذ وأصابوا عدة مراكز للأعداء حتى سقطت إحدى القذائف قريبًا من مقر كوربيلا الذي كان هناك بعد حضوره من المجلس الأخير).

كوربيلا: «سحقًا لذلك الجنرال لو كان لدي طمع في السلطة لأبدته في أول يوم لي».

(فجأة موجة عنيفة يصطدم بسببها بالحائط فأسرع الجنود إليه ليطمئنوا عليه فنهض غاضبًا).

-هوجم من الجهة الشرقية ٢١ مركزًا من أصل ٣٠ وأُلحقت أضرار معتبرة بها المنطقة الشرقية – ستكون هناك إثارة كافية لتزيح عني الملل!

(إلى المجاهدين بعد انطلاقهم من طريق آخر).

محمد: «أستطيع أن أرى غمامتنا تزلزلهم والرعب يرقصهم».

الشيخ لحسن: «سننتصر بإذن الله».

(نضال لا يزال صامتًا ثم توقفوا عن الإطلاق، ثم جاءهم ساعٍ من القرية يطلب النجدة).

نضال: ماذا تقول (يتذكر ما فكر فيه وحلله) سحقًا هكذا فعلوها!».

(فأسرعوا لكن باغتهم جنود آخرون في الطريق وقامت معركة هائلة أما في القرية أُخرج كل السكان من بيوتهم وأُجبروا على قطع أشجارهم بأيديهم).

الرجل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ لن أقطعها حتى وإن كلفتموني حياتي ثمنًا لها، أبدًا لن أفعل، فاليد التي زرعتها لن تقطعها مطلقًا».

(فيقتلونه، أما آخر ففعل الأمر مكرهًا وهو يبكي بعد أن خيروه بينها وبين حياة امرأة).

كوربيلا (منزعجًا): «هؤلاء بائسون فعلًا».

(ويضرمون النار في القرية بأهلها فيسمعون فجأة زغردة طويلة من أريام).

(ويستشهد الأبطال كلهم؛ الشيخ لحسن قتله كوربيلا، أما نضال فقد جُرح فعاد للمغارة بعد نهاية المعركة).

مارلين: «لماذا عدت وحيدًا؟».

نضال مقهورًا متأثرًا: «لأنهم سلموا روحهم لبارئهم..».

مارلين متأثرة: «سلمهم الله أرجو لهم الرحمة».

(عالجت جراحه، ثم بعدها تفطن لخطة كوربيلا حيث عثر على لغم أراد تفجير الجبل به، ولحسن الحظ نجيا وهربا قبل انفجاره).

نضال: «إنّ حزني على هذا الجبل لأشد من حزني على فقد أخوي وأختي؛ لقد حمل هذا الجبل رماح ألم وأمل، واحتضن كل عرقنا الجزائري هنا وها هو الآن يلتهب...!».

(في السجن حيث أريام عُذبت بشدة لكي تعلمهم بمخبأ المجاهدين في منطقة مجاورة لهم لكن عبثًا!).

جندي: «تلقيت كفايتك فلما لا تبوحين بما عندك؟».

أريام بأنين: «أنت تحلم، فهذا من عاشر المستحيلات أن أشيَ بهم».

(يأتي كوربيلا).

أشير: «أزف لكِ خبرًا يعجبك، لقد أبيد الكل، ومع هذا لا أظن أن الأسطورة مات، ومارلين ما دامت معه فستكون لها ٧ أرواح!».

الجندي: «كدت أقضي عليه يا سيدي في المعركة».

(يقاطعه غاضبا ويقتله).

أشير: «الأسطورة يُقتل على يد واحد مثله؟ (تفزع أريام ويلتفت إليها فيزيد فزعها) اِعذرينا فلم نرحب بك كما يجب يا أريام..».

أريام: «أنت وحش بلا رحمة بل قلبك من صخر! (يزيد فزعها) حسنًا ماذا تريد؟».

أشير: «ماذا أريد برأيك يا أخت نضال؟».

(تندهش).

أشير: «بالتأكيد، نضال خريج الجامعة العربية العسكرية «أم الفوارس» بدرجة ممتاز الأسطورة الجهادية، أما أنا فأشير كوربيلا خريج «ليا حاد»، وأيضًا نفس السابقة، ولكن بحيلتي أنا، والآن هلا أهديتنا معلومات؟».

أريام: «الموت أهون علي ألف مرة من أن أبيع وطني».

أشير: «أنتم بؤساء بحق».

(فتغضب فتصفعه فيلتفت لها مستغربًا ضاحكًا).

أشير: «جواب كافٍ شافٍ حسنًا إليك ردي».

(ويوجه لها ضربة للبطن فتفقد وعيها ثم يأمر بقتلها، فيقتلها فعلًا، ويصل الخبر إلى نضال).

نضال: «كانت حية وأنا لا أدري؟ وشوقي لها لا يحصى! كانت بمثابة أم ثانية لي. رحمك الله يا أريام رحمك يا شهيدة..».

(أما بمكان آخر).

ريهام: «معذرة يا سيدي هل نفتالي هنا لأكلمه؟».

أشير: «إذا أردت، زوريه في المقبرة بالمجان» (فتفزع).

ريهام: «على ما يبدو أنك القائد الجديد، أعتذر!».

أشير: ياللسخرية! جاسوسة هذه المنطقة أخت عائلة قتلت آخر أفرادها قبل لحظات (فتفزع أيضًا).

ريهام: هذا لا يهمني، جئت كي أخبرك بأن المخبأ هو في أحراش غابة الجبل الأخضر». أشير: انتظري، أنا لا أثق بالعرب أبدًا مهما أبدَوا من إخلاص!».

ريهام: «اطلب مني ما شئت؛ لأبرهن لكم بأني وفية مخلصة!».

أشير: «دعيني أفكر، لم لا تجدين لي نضال أخاك وتقضين عليه؟ عفوًا أقصد جديه وحسب فقتله أكبر منك!».

(فتذهب وهي عازمة على قتله وفي مساء ذاك اليوم راقبت الشوارع إلى أن وجدته فراقبته ثم هاجمته بغتة، ولحسن الحظ كان سريعًا، وقام عراك بينهما لم يعرفها؛ لأنها كانت ملثمة، ولما أرادت طعنه دافع عن نفسه فأرداها قتيلة، وعندها اكتشف أنها أخته فتلون وجهه!)

مارلين: «أليست هذه ريهام أختك؟».

نضال: «كانت ضررًا وخطرًا على الوطن؛ موتها أفضل».

(وعندها يظهر كوربيلا وهو سعيد فتجهز نضال).

أشير: «وأخيرًا» (فلا تتمالك مارلين نفسها وتذهب إليه غاضبة).

مارلين: «يا قاتل أمي يا وحش سأنتقم منك» (فيمسكها ويريد قتلها).

نضال: «آشير دعها فالمعركة بيننا فلا تبدأها بقتلها!» (فتغادر...).

كان هذا اليوم هو التاسع من ذي الحجة أي أن المجاهدين اُستشهدوا وهم صائمون، يوم عيد الأضحى كان حزينًا بسبب ما حل بالمغارية فقالت السياسية رفل التي سبق لها وأن ساعدت المقاومين:

«السلام عليكم يا أهل الوطن الجريح الدامي، ها نحن نلتقي اليوم، وبالأمس حدث ما حدث، أُبيد المغارية والجبل وكل تلك الثروة الزيتونية الغالية...! آن لنا أن نطبق (ما يُسلب بالقوة لا يُعاد إلا بها) هكذا كان شعار أولئك الأبطال، لنزمجر ولنعد ثوارًا أبطالًا ولنا إحدى الحسنيين، وذكر هؤلاء الأمجاد باق: المنفق وعائلته، المسيح وأخوه رياض، حمزة، محمد، أريام ووالدتهم وأبوهم وأسطورتنا نضال وغيرهم كثير.

أما في خطاب آخر قاله المحامي ستانلي وايلر محامي ماريان وهو غاضب ومعادٍ لكوربيلا: «بَرَرنا بأن الدين يجمعنا فكذبنا، بررنا بالكثير لكن. ما يربطنا هو التعايش كرابط صلب لا يتمزق، آل يعقوب وإن لم يكن لنا وطن فلنا أصول ولنا كبرياء، ولا نرضى بهذا العار والمسخ، قوموا وعبروا عن رفضكم وغضبكم أنا يهودي لكني إنسان ولست بهمجي!».

(مارلين لم تعرف أين تذهب وماذا تفعل؟ هي قلقة على نضال حيث إنه لم يُعد بعد. كانت في فندق فجاءها ستانلي وايلر برسالة وقرأتها).

وايلر: هذه كانت وصية والدتك التي أعطتني إياها قبل مقتلها، وتشدد على أن تطبيقها حرفيًا فكري جيدًا قبل اتخاذ القرار».

مارلين: «هكذا إذًا تطلب مني مساعدة المجاهدين، ثم بعدها العودة للوطن، لأنني سأكون عبئًا ثقيلًا على نضال فهو صقر، ومرافقتي له تعيقه؛ هي لا تريدني أن أسمح لكوربيلا لجعلي مثله. عليَّ العودة والقيام بما هو صحيح... سأعود إذا لم أنقذ هنا فسأنقذ هناك بلا شك.

لن أجعل آخر رغباتها لا ينفذ (تستدير بجدية كبيرة وأمل) سيدي إن وجدت نضال بلغه تحياتي وشكري».

(وفي الغد اِستقلت الطائرة مغادرة فلسطين فقالت بفخر):

«نضال أنت مايسترو لكفاح أبدي... شكرًا».

بعد أن عادت لم تدخر جهدًا ووصلت الليل بالنهار كي لا ترى مريضًا إلا ويُعالج واِعتنقت الإسلام أيضًا. أما نضال فاختفى بعد النزال، إنه لم يمت بل كافح وكأنه شبح إلى ميقات لم يعلمه أحد.

* * *